المحاضرة الخامسة: المسح الأدبي والإطار النظري للبحث

أولا: المسح الأدبي

1- تعريف المسح الأدبي: المسح الأدبي هو ذلك الجزء من البحث الذي يقوم فيه الباحث بجمع وقراءة وتحليل كل أو جزء مما كتب في موضوع بحثه ليستند إليه في دراسته، فهو إذا جرد لما يعرف عن الموضوع مع التحليل، فلا يكتفي بذكر ما قرأ من تلك الأدبيات، ولكنه يأخذ منها من المصطلحات، والأفكار، والنظريات، والأرقام، والنقاشات ما يساعده على القيام ببحثه ووضع فرضياته، مع إعطاء وجهة نظره كباحث فيعرض نقده وتقييمه لتلك الأدبيات.

عندما يتطرق الباحث لإحدى المجالات الجديدة، أو تلك التي لم تكن فيها أدبيات كثيرة، فإن المسح الأدبي الذي سيقوم به يتمثل في جمع كل ما تم تأليفه في الموضوع والاطلاع عليه لكن بالنسبة للمواضيع التي قدمت فيها كتابات كثيرة، بحيث لا يمكن معرفتها ولا الاطلاع عليها كلها، ففي هذه الحالة يكتفي الباحث بالاطلاع على أهمها. وأهم المراجع بالنسبة لأي موضوع بحث هي تلك التي تعطي للباحث:

- فكرة دقيقة عن آخر توجه للبحث في ذلك المجال.
- فكرة دقيقة عن النقاشات الدائرة بين الباحثين بشأن ذلك الموضوع.
- أحدث ما تمت كتابته في الموضوع.
- المؤلفات المؤسسة للبحث والمراجع الأم لهذا الموضوع.

بالإضافة إلى المسح الأدبي، هناك من الباحثين من يلجأ إلى ما يعرف بالدراسات السابقة، وهي تشير إلى دراسات تطبيقية (أي ميدانية) أجريت في الواقع لنفس مشكلة البحث أو مشكلة قريبة منها، حيث تمكن الباحث من مقارنة مقاربتهم بالمقاربات التي اتبعت خلال إجراء تلك الدراسات السابقة.

ورغم تداخل المفهومين إلا أننا نتبنى الطريقة التي تعتبر أن مسح كل ما تم إنجازه في الموضوع بمختلف أشكاله مسحا أدبيا سواء كان أدبيات تقليدية (مقالات، أوراق علمية، كتب، مداخلات في ملتقيات..)، أم دراسات سابقة لأنها تعتبر من المصادر الثانوية التي يعتمدها الباحث مثلها في ذلك مثل أي مصدر من المصادر الثانوية.

2- كيفية إجراء المسح الأدبي: لعملية المسح الأدبي ثلاثة جوانب:

أ- إختيار الأدبيات وجمعها: يجد الباحث الأدبيات في شتى الوسائل المسخرة للنشر كالأعمال المنشورة ورقيا، والأعمال الرقمية .. ومن أهم طرق معرفة المراجع المهمة والمتعلقة بالموضوع، طريقة "البحث التاريخي" التي تتمثل في البحث في قائمة مراجع المؤلفات التي يقرؤها الباحث، أي أن الباحث بعد الانتهاء من قراءة مقال، مثلا، يبحث في قائمة مراجع هذا المقال ثم في قائمة مراجع هذه الأخيرة، وهكذا... فإنه يرجع إلى مراجع مهمة وحتى المراجع المؤسسة الأولى. عموما، يرجع الباحث إلى:

- الأدبيات العامة حول الموضوع (مثل المعاجم والموسوعات والكتب الدراسية...) والتي تعطيه الفكرة الأولية حول موضوعه.
- الأدبيات الأكثر تخصصا (مثل المقالات والأبحاث العلمية ...) والتي تأتي قراءتها في مرحلة ثانية ليستطيع التعمق في المصطلح.
- قراءة المراجع التي تخص المصطلح نفسه، فتساعده على رسم حدود وأبعاد وخصائص ذلك المصطلح. يمثل هذا النوع من المراجع مصدرا هاما بالنسبة للباحث لأنه يساعده على التعمق في المعارف الخاصة بالمصطلحات التي سيستعملها كثيرا في عمله البحثي، وعلى التعريف الإجرائي لهذه المصطلحات فيما بعد، وبهذا يكون الباحث قد وصل إلى تكوين نظرته حول موضوعه، فيستطيع أن يستنبط بعض الآراء والمواقف الخاصة به حول الأدبيات التي قرأها.

ب- القراءة والتدوين: لا يجب أن ينتظر الباحث حتى ينتهي من جمع الأدبيات ليبدأ قراءتها. بل يقضي وقته في القراءة بالتزامن مع عملية جمع الأدبيات، فقد تقوده القراءة إلى البحث عن مراجع أخرى أو إلى قراءات إضافية ... الخ.

أثناء القراءة، يدون الباحث أهم الأفكار والأقوال التي يعتقد أنه سيذكرها في عمله، أو أنه سيقتبسها. كما يسجل أيضا ملاحظاته كنقد فكرة، أو الإشارة إلى نقص معين في نظرية مثلا، أو غير ذلك. ولأجل تسهيل الرجوع إلى تلك الأمور التي سجلها، يقوم بتبويب ما سجله حسب المواضيع مثلا، أو حسب الوظيفة، أو حسب خطة العمل.....

في إطار تدوين المعلومات يستعمل الباحثون خارطة القراءة الذهنية، وهي كيفية جيدة لاستخراج أهم الأفكار من المراجع، والدراسات السابقة، وإظهار الربط فيما بينها. كما تساعد أيضا على تدوين أفكار الباحث حول ما قرأه.

ج- التلخيص والاستخلاص: يجب أن يقوم الباحث بتلخيص كل مرجع قرأه، وذلك باستعمال بطاقة القراءة ثم يقوم أيضا بتسجيل ما يستخلصه بالنسبة لكل مرجع، سواء كان نقدا أو موافقة أو غير ذلك.

لا يوجد نموذج معين أو مفضل لبطاقة القراءة، لكن يجب أن يظهر فيها:

- عنوان المرجع والاسم الكامل للمؤلف أو للمؤلفين.
- تاريخ النشر، وجهة النشر، وطبيعة المرجع (مقال، كتاب دراسة .....).
- هدف البحث.
- المنهجية المتبعة منهجية (استنباطية، منهجية استقرائية).
- الطريقة المتبعة (كمية أو نوعية).
- مجتمع الدراسة وطبيعة العينة (إن كان هناك عينة).
- كيفية جمع البيانات (استبيان مقابلة ملاحظة...) وطريقة معالجة البيانات.
- أهم النتائج المتوصل إليها (أو أهم التوصيات إذا تعلق الأمر بالدراسات التطبيقية).
- أهم ما ورد في مجال مناقشة النتائج.
- ملاحظات الباحث حول ما جاء في المرجع (نقص، موافقة، تناقض، تثمين).

د- كتابة الفقرة الخاصة بالمسح الأدبي: بعد أن ينتهي الباحث من تلخيص ونقد كل ما جمعه من مراجع مهمة بالنسبة لموضوعه، فإنه يتعين عليه أن يعرض نتيجة هذه العملية في بحثه (رسالته أو ورقته العلمية أو غير ذلك)، أي أنه يقوم بكتابتها في فقرة خاصة. تحتاج هذه الكتابة إلى ثلاثة أجزاء كالتالي:

* **المقدمة:** وهي عبارة عن تمهيد. . غالبا ما يتمثل في التذكير السريع بموضوع البحث وما يدور حوله.

* **المستخلص من المسح الأدبي:** ففي هذه الفقرة، يكتب الباحث نتيجة عملية المسح الأدبي أي كل ما سجله من الأفكار والنقاشات والنظريات، والنماذج، مع ملاحظاته ووجهة نظره الخاصة. هذه الفقرة تكون مرتبة ومهيكلة ومحررة بأسلوب يجعل قراءتها سهلة وغير منفرة.

* **الخاتمة:** يختم الباحث هذه الفقرة بالإشارة إلى مشكلة بحثه مرة أخرى ومكانتها من المسح الأدبي الذي قام به.

3- أهمية وفوائد المسح الأدبي: تحتاج عملية المسح الأدبي إلى وقت طويل لأن القراءة تستغرق الكثير من الوقت، خاصة عندما يكون عدد المراجع كبيرا، كما تحتاج أيضا إلى صبر ومنهجية وتنظيم للعمل، وتظهر أهمية المسح الأدبي فيما يلي:

- يساعد الباحث على الربط بين مصطلحات مشكلة بحثه، لأن الباحث لا يصل إلى تكوين فكرة دقيقة حول آخر توجه للبحث في موضوع معين من أول يوم. ولكن هذا يأتي بالتدريج وبعد العدد الكبير من القراءات، التي يطلع الباحث من خلالها على الآراء السائدة والكيفيات المتداولة لمعالجة موضوع بحثه.
- يساعد المسح الأدبي الباحث على معرفة النقاشات القائمة بين الباحثين حول موضوع البحث، والاطلاع على البراهين والدلائل التي يوظفها الباحثون عند عرض أفكارهم وعند نقدهم الأفكار المخالفة، مما يساعده على تعلم كيفية نقد أفكار غيره وكيفية عرض وجهات نظره بطريقة علمية مقبولة.
- ضمان تراكمية البحث العلمي، بحيث يضطر الباحث للرجوع إلى أحدث ما كتب في المجال الذي يبحث فيه، وأيضا الرجوع للأدبيات التي تعتبر مؤسسة للبحث في هذا المجال ليكمل معرفته بالموضوع، وليعطيه تأصيلا في الفكر العلمي الخاص بمجال بحثه.
- يمكن الباحث من التأكد من حسن تحديد متغيرات بحثه، وذلك من خلال الاطلاع على المتغيرات التي اعتمدها الباحثون في نفس الموضوع، أو في المواضيع المشابهة لموضوعه.
- يبين للباحث المواضيع التي تم تناولها والتي لا فائدة من التطرق إليها من جديد، فيجنبه الخوض فيها وهدر جهده ووقته من غير مساهمة فعلية في تحسين المعرفة.

- يمكن المسح الأدبي الباحث من معرفة المصطلحات الأساسية لموضوع دراسته، والتي سيحتاج إليها كثيرا عند قيامه بعمله البحثي لأنها تمثل معالم ذلك البحث.

- يساعد المسح الأدبي أيضا الباحث على استنباط الفرضيات التي ينطلق منها محاولا حل مشكلة بحثه، فلابد أن يستند الباحث في المقاربة الاستنباطية إلى المسح الأدبي ليصل إلى إعداد فرضياته بطريقة أو بأخرى.

- يساعد المسح الأدبي الباحثين في التوصل إلى طرح الأسئلة المناسبة والملائمة المتعلقة ببحثهم.

- يبرز المسح الأدبي بعض الصفات الأخلاقية المهمة للباحث نفسه، فيظهر صبره، وصدقه، وأمانته، كما تظهر أيضا خصائصه العلمية كقدرته على التلخيص، ومهارته في القراءة. أما بالنسبة للصبر فإنه يفيده في تحمل طول البحث والقراءة، والكتابة والتلخيص. أما الصدق فإنه يمكنه من الاستفادة من الأدبيات المتوفرة وذكرها من غير تحريف ولا تبديل. أما الأمانة فتلك التي تجعله يذكر أصحاب الأفكار ويشير إليهم محترما جهدهم وعملهم.

ثانيا: الإطار النظري للبحث

1- تعريف الإطار النظري للبحث: هناك من الباحثين من يرى أن المسح الأدبي هو الإطار النظري نفسه، وهناك من يفضل كتابة الإطار النظري قبل المسح الأدبي فذلك لأنهم يعرفون الإطار النظري على أنه يخصص للأدبيات التي تتعلق بموضوع البحث، وبالمجال العام الذي يأتي فيه البحث، وفي هذه الحالة فإنه من الضروري فعلا أن يأتي قبل المسح الأدبي لأن الأدبيات التي يرجع إليها الباحث لتحديد وعرض موضوعه العام تأتي في بداية مرحلة تصميم البحث العلمي، بينما يأتي المسح الأدبي في نهايتها.

ولكن بما أن الباحث قام باختيار وجمع وقراءة وتلخيص ذلك الكم الهائل من المقالات، وفصول الكتب والدراسات السابقة، والتقارير الخ من أجل أن تصبح له معرفة حول الموضوع تمكنه من الإقبال على دراسته والبحث فيه.

يقصد بالإطار النظري للبحث ذلك العمل الناجم عن القراءات والتحاليل لما جمعه الباحث من مراجع أثناء عملية المسح الأدبي، والذي سيستند إليه مباشرة ليعالج موضوع بحثه.

تلك المعرفة التي تشكلت عنده تخص مجموعة من العناصر النظرية كالمصطلحات، والنماذج، والنظريات، والأفكار البارزة... التي تخص موضوع بحثه بكيفية مباشرة وغير مباشرة، والتي يقوم الباحث بعرضها في إطار مهيكل، ثم يقوم بعد هذا بانتقاء من هذه النظريات والمصطلحات والنماذج - ما سيعتمد عليه لإجراء دراسته، فيقدمه في فقرة خاصة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإطار النظري لبحث معين، لا علاقة له أبدا بالجانب التطبيقي أو التجريبي لذلك البحث.

فالإطار النظري هنا هو بمثابة تكملة للمسح الأدبي لأنه عبارة عن تسليط الضوء على جانب مهم من ذلك المسح الأدبي وتفصيله لتحديد الإطار الذي يتحرك فيه الباحث. يمكن القول أن الإطار النظري بهذه الكيفية جزء أخص وأضيق من المسح الأدبي. وهذا ما يوافق تماما المنهج الاستنباطي الذي ينطلق من العام إلى الخاص.

هناك من الباحثين من يستعمل الإطار الاصطلاحي إلى جانب الإطار النظري، إلا أنه ليس من الضروري اللجوء إلى الإطار الاصطلاحي إلا عندما يوجد بعض اللبس في تعريف، أو في محتوى أو استعمال بعض المصطلحات، أو أن تكون بعض المصطلحات جديدة مأخوذة من مجال معرفة آخر أو مبنية من طرف الباحث نفسه.... ففي هذه الحالة، يصبح الإطار الاصطلاحي ضروريا ليوضح فيه الباحث قصده عند استعمال كل من هذه المصطلحات.

2- وظائف الإطار النظري للبحث: من بين أهم وظائف الإطار النظري في البحث العلمي ما يلي:

- عرض أهم المصطلحات التي سيلجأ إليها الباحث لإجراء دراسته.

- جمع وتلخيص المعارف التي تخص موضوع البحث مباشرة بقصد بثها في الوسط العلمي وهذا ما يعطي فرصا لمن يهتم بذلك الموضوع للاطلاع على مدى تقدم البحث فيه.

- إعطاء الباحث سندا علميا للقيام بدراسته.